

**جهود المفسرين العراقيين القدامى
وأثارهم على البحث العلمي المعاصر**

اعداد

د: صهيب أحمد الوهب

د: عبد الله حميد الوهب



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَنَا لِلتَّعَلُّمِ مِنْ كِتَابِهِ ، وَوَقَّفَنَا لِلسَّيْرِ لِمَعْرِفَةِ حُكْمِهِ وَأَحْكَامِهِ ،
وَاصِلِي وَاسْلَمَ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

وبعد :

إن أولى ما عني الذي يبتغي العلم بمراعاته وأحق ما صرف العناية إليه ، وذلك
هو القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولذا انصرفت هممتنا
إلى المشاركة في المؤتمر المبارك الذي تقيمه كلية الإمام الأعظم رحمه الله الجامعة،
تحت عنوان (دور العراق في النهضة المعرفية) ، الذي سيقام في كردستان العراق ،
ببحثنا الموسوم (جهود المفسرين العراقيين القدامى وأثارهم على البحث العلمي المعاصر
(ونسأل الله التوفيق .

أولاً : أهمية الموضوع :

١. إن العمق الحضاري المذكور ارتبط واختلط في جيناته ؛ ففيه مزيج من العزة
والثقة بهذه الهوية ، وتتأكد هذه الهوية عندما يتقلب ذات اليمين فيرى دجلة
شاهدة على تأريخه الثقافي الكبير .

٢. ومن شواهد حضارته شواهد حضارة آل البيت الأطهار والإمام أبو حنيفة رحمه
الله ، وكذلك إذا قلب النظر رأى إمام السنة أحمد بن حنبل ووجد كثيراً من هؤلاء
وأمثالهم من العلماء ، وفي بغداد اجتمع سفيان والحمّادان وابن المبارك

٣. وفي جنوب العراق في منطقة الكوفة ، والتي هي المقصودة بكلام السلف الأول
عن العراق ، والتي انتهت كمدينة يتمثل فيها مدرسة النحو والفقه والحديث

والتفسير ، يقابلها مدينة أخرى وكانهما دولتان متنازعان في صراع حول سباق التنمية العلمية ، شعارهم في ذلك (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)

٤. نتج عن ذلك تطور البحث العلمي وانتشاراً للطاقت العقلية العراقية، التي أثرت فيما بعد على المعمورة بأسرها و في نواحي البحث والتقنية ، ومن ضمن تلك المدارس مدارس التفسير في العراق واثارها على البحث العلمي المعاصر ، فكان بالأهمية معرفة شيء عن رجال العراق الافذاذ في هذا المجال، ولإبراز جهود هؤلاء العلماء في علم التفسير .

ثانيا : خطة البحث :

يتكون البحث من ثلاثة مباحث :

- المبحث الاول : نشأة علم التفسير في العراق ومراحل الامتداد .
- المطلب الاول: التفسير بين الرأي والمنقول في فكر أهل العراق .
- المطلب الثاني: أهل العراق مذهباً في التفسير.
- المبحث الثاني : التفسير العلمي والاعجاز في مدرسة العراقيين
- المطلب الاول : التفسير العلمي في فكر الغزالي في بغداد (مدرسة النظامية) ،
- والزمخشري الكوفي من خلال اللغة .
- المطلب الثاني : الاعجاز البياني في فكر الباقلاني البصري
- المطلب الثالث : الآراء المترتبة على احصاء الامام الغزالي ومنهج اللغة في فكر الزمخشري
- المبحث الثالث: تأليف المفسرون العراقيون لكتب تضمنت انواع التفسير
- المطلب الاول: أحكام القرآن الكريم وشرح غريبه.
- المطلب الثاني: تفسير القرآن الكريم الشمولي.
- الخاتمة.

المبحث الاول

نشأة علم التفسير في العراق ومراحل الامتداد على يدى شيخ المفسرين في
العراق أنس بن مالك رضي الله عنه

المطلب الاول

التفسير بين الرأي والمنقول في فكر أهل العراق

قامت مدرسة التفسير بالعراق على يد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير، غير أن عبد الله ابن مسعود كان يعد الأستاذ الأول لهذه المدرسة، نظراً لشهرته في التفسير وكثرة المروى عنه في ذلك، ولأن عمر رضي الله عنه لما ولى عمار بن ياسر على الكوفة، سیر معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فكونه معلّم أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر، جعل الكوفيين يجلسون إليه، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة.^(١)

ويرى الذهبي رحمه الله بأن هذه الحلقة جعلت أهل العراق يمتازون بالتفسير بالرأي وهذه ظاهرة نجدها بكثرة في مسائل الخلاف، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذى وضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فيكثر تفسير بالرأي والاجتهاد، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية، نتيجة من نتائج إعمال الرأي في فهم نصوص القرآن والسنة.^(٢)

وانما اشتهرت بمدرسة الرأي لان الصحابي الجليل ابن مسعود كان قد فتح الله عليه فهو يفسر القرآن الكريم بالرأي المعتبر ، ومن جملة اقواله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن

(١) التفسير والمفسرون ١ / ٨٨

(٢) التفسير والمفسرون ، ١ / ٨٨، ينظر : هداية القاري إلى تجويد كلام الباري ٢ / ٤٧٤.

ثابت نسخ المصاحف فقال: " يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ [كتاب] المصاحف وتولاها رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب أبيه كافرا [يريد زيد بن ثابت] . وكذلك قال عبد الله: يا أهل الكوفة أو يا أهل العراق اكتبوا المصاحف التي عندهم، وغلوها فإن الله يقول: {ومن يغلل} [سورة: آل عمران، آية رقم: ١٦١] يأت بما غل يوم القيامة فالقوا الله بالمصاحف قال الزهري: فبلغني أن ذلك: كره من مقالة ابن مسعود رجال أفاضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم [قال ابن أبي داود: عبد الله بن مسعود بدري وذاك ليس هو ببديري، وإنما ولوه لأنه كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم]^(١)

اشتهر العراق منذ القدم بحضارته العريقة في شتى النواحي المعرفية ولم يخلو عصره من العصور إلا وكان للعراقيين بصمة ظاهرة في نشر العلم بشتى أنواعه وكان العراق في مراحل تأريخه سباقاً من خلال رجالاته بالريادة والقيادة في مدارس العلوم ومن تلك المدارس مدرسة التفسير فقد تصدر لهذه المدرسة رجال أفذاذ كالباقلائي العراقي في الإعجاز البياني وكالكيا الهراسي^(٢) في التفسير بالمنقول والمعقول ، ومثلهم كثير .

وكان لإمتداد عمر أنس بن مالك - رضي الله عنه - بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأمور التي ساعدت في إعطائه فسحة زمنية كبيرة لتعليم الناس، فقد عاش بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - نيفاً وثمانين سنة قضى العشرين الأولى منها متنقلاً في ميادين الجهاد أثناء حروب الردة والفتح، ثم استقر بعد ذلك في البصرة، فمكث فيها مدة تزيد على ستين سنة وهو يُعلم الناس العلم وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) المصاحف لابن أبي داود ص: ٨٠.

(٢) محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم الطبري الأصل البغدادي أبو جعفر ابن الشيخ أبي الحسن الكيا الهراسي، سمع أبا طالب بن يوسف وغيره وما أعلمه حدث، توفي في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، ينظر : تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية ١٥ / ٥٠.

وسلم - ، وتمكن خلال هذه المدة من تكوين طبقة من علماء البصرة كان لهم أثر كبير في تاريخ الإسلام الفكري.^(١)

المطلب الثاني

أهل العراق مذهباً في التفسير

كثر الاصطلاح في كتب علوم القرآن الكريم على أهل العراق وهم يريدون رأيهم في التفسير ، وليس التفسير فحسب كقول الفراء مصاحف العراق أي قرأتهم للمعنى وفي مصاحف أهل العراق : «أَوْ أَنْ يَظْهَرَ» أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ التَّبْدِيلَ عَلَى دِينِكُمْ، أَوْ أَنْ يَتَسَامَعَ النَّاسُ ، فيصدقوه فيكون فيه فساد على دينكم.^(٢)

فللعراق مدرسته الخاصة التي تبلورت من خلال الوافدين اليه ، كالحجاز والشام ولا يذكر العلماء المدارس الا قدم العراق في الذكر قال أبو عبيد: (وأما قول أهل العلم اليوم جميعاً من أهل العراق وأهل الحجاز وأهل الشام وأصحاب الأثر وأصحاب الرأي وغيرهم)^(٣)

ومن هذا المنطلق يقول الزرقاني رحمه الله (نستطيع أن نعتبر التابعين طبقات ثلاثاً طبقة أهل مكة وطبقة أهل المدينة وطبقة أهل العراق)^(٤)

فمن هم أهل العراق في التفسير إذا اطلق في كتب التفسير ؟

(١) أقوال أنس بن مالك رضي الله عنه في التفسير ، ٧٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ، ٧ / ٣

(٣) الناسخ والمنسوخ للقاسم بن سلام ص: ٨٢.

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن ١٩ / ٢.

فمنهم مسروق بن الأجدع كان ورعا زاهدا صحب ابن مسعود قال ابن معين فيه ثقة لا يسأل عنه وكان القاضي شريح يستشيريه في معضلات المسائل روى عنه الشعبي وأبو وائل وآخرون لصدق روايته وأمانته، ومنهم قتادة بن دعامة هو من رواة ابن مسعود شهد له ابن سيرين بالضبط والحفظ وقال فيه ابن المسيب ما رأيت عراقيا أحفظ من قتادة غير أنه كان يخوض في القضاء والقدر فتخرج بعض الناس من الرواية عنه وقد احتج به أرباب الكتب الصحيحة، ومنهم أبو سعيد الحسن البصري قال ابن سعد فيه كان ثقة مأمونا وعالما جليلا وفصيحا جميلا وتقيا نقيًا حتى قيل إنه سيد التابعين، ومنهم عطاء بن أبي مسلم الخراساني أصله من البصرة لكنه أقام بخراسان بعد أن دخلها لذلك نسب إليها كان من أجلاء العلماء غير أنه كان مصابا بسوء الحفظ لذلك اختلفوا في توثيقه، ومنهم مرة الهمذاني الكوفي لكثرة عبادته قيل له مرة الطيب ومرة الخير^(١)

ومنهم (الأصبهاني) هو أبو محمد بن عبد الرحيم بن شبيب بن يزيد بن خالد الأسدي الأصبهاني توفي ببغداد سنة ٢٩٦ هـ وكان إماما في رواية ورش ضابطا لها مع الثقة والعدالة. رحل فيها وقرأ على جماعة من أصحاب ورش وأصحاب أصحابه ثم نزل بغداد فكان أول من أدخلها العراق وأخذها الناس عنه حتى صار أهل العراق لا يعرفون رواية ورش من غير طريقه^(٢) وغيرهم كثير .

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢١، التفسير والمفسرون ١/ ٨٩.

(٢) القول الأصدق في بيان ما خالف فيه الأصبهاني الأزرق ، ٥ ، ينظر : اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ١/ ٣٠.

المبحث الثاني

التفسير العلمي والاعجاز في مدرسة العراقيين

المطلب الاول

التفسير العلمي في فكر الغزالي في بغداد (مدرسة النظامية) ، والزمخشري الكوفي من خلال اللغة

يعد التفسير العلمي أحد فروع أو ألوان التفسير، ويراد به: الاستناد إلى حقائق العلم التجريبي ونظرياته في شرح آيات الطبيعة والإنسان، وأشهر المؤلفات القديمة فيه التي أصبحت علماً في هذا التفسير (مفاتيح الغيب في تفسير القرآن) الرازي (ت: ٦٠٦هـ). ويتفق العلماء على أن الإمام الغزالي^(١) (ت: ٥٠٥هـ)، من أوائل المتكلمين في هذا النوع من التفسير، وعلى هذا فيكون ظهوره على وجه التقريب في أواخر القرن الخامس الهجري، وقد ترأس المدرسة النظامية ، كما كان معه البارع في علوم القرآن الكريم أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، الملقب عماد الدين، المعروف بالكنيا الهراسي البغدادي الذي ترأس المدرسة النظامية بعده^(٢)

من خلال كتاب جواهر القرآن ودرره للإمام الغزالي رحمه الله: يقسم الغزالي آيات القرآن الكريم الى نمطين : النمط العلمي، النمط العملي، يجعل من العلم والعمل، أمرين

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، وله تصانيف عدة، وكانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة، وقيل سنة إحدى وخمسين بالطابران، وتوفي يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة بالطابران، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ٢١٦/٤.

متلازمين لا ينفكان اذ يقول : وأصل الأيمان - العلم، والعمل - ، ثم يذكر إحصاءات لكلا القسمين فيقول : (النمط الاول من جواهر القرآن وهي سبعمائة وثلاث وستون اية أولها سورة الفاتحة)^(١)، ويسمي هذا النمط بالنمط العلمي ثم يذكر (النمط الثاني) وهو (في درر القرآن وهي سبعمائة وأحدى وأربعون اية)^(٢)، ويخص النمط الثاني بآيات الاحكام. وقد يجد الباحث صعوبة في تناول (٧٦٣ اية) فأنها تصلح لبحوث عدة، ولكنني عندما قرأت الآيات التي احصاها الامام الغزالي رحمه الله، وجعلها في تصنيفها في المجال العلمي وجدته يذكر سورة الفاتحة، وآية الكرسي، وقصص نبي الله عيسى عليه السلام، وآيات كثيرة ذكرها في التصنيف العلمي مع آيات علم الفلك، والطب، وعلوم الحياة، وصناعة المعادن، وبعد متابعة دقيقة للآيات التي احصاها الامام الغزالي رحمه الله، وجدت ان الآيات التي تخص العلوم الصرفة هي (١١٩ اية فقط)، ونقصد بها التي تحمل معنى القضية العلمية الصرفة، اما لماذا هذا العدد الذي يمثل ١٠ بالمئة أو يزيد بقليل، من مجموع ما احصاه الامام الغزالي، والجواب عن ذلك :

إن الصلة التي يقصدها الامام الغزالي وهي ان هذه الآيات تدعو الى الايمان بالعلم، أو تشير الى احاطة علم الله بكل شيء معلوم، وهذا له ارتباط بين ثنائيا سطور بحثنا، وهو بأصله بيان الله جل وعلا في مقاصده، وضوابط الايمان لمن أراد ان يتعلم هذه العلوم، لكيلا تتجرد العلوم من ذكر الله، فلا ينسب العلم للإنسان وحده دون الاعتراف بحقيقة أصل الانواع التي خلقها الله.

(١) جواهر القرآن ودرره، محمد بن محمد ابي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، دار الجيل، بيروت، الطبعة:

السادسة، ١٩٨٨م، ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ١٠٩.

ثم ذكر كل ماله صلة بهذه الآيات لإيضاح صورة المقاصد العقائدية التي تترتب عليها النتائج العلمية، كما يذكر من سورة الواقعة مثلاً قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (١) الى قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، فهذه الآيات ومثلها من السور الطوال هي جزء من العدد الذي احصاه وهي: (١٨) اية، او من بداية سورة النبأ الى قوله تعالى: ﴿وَجَنَّتِ الْفَافَا﴾، وهذه (١٦) اية وهكذا، وانما اتت هذه المنهجية لكيلا لا تتجرد الآيات العلمية من الهيمنة الربانية، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٣) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

وهذا منهج سلكه الشيخ سعيد حوى في بيان القضية العلمية: عندما ربط ظاهرة حدوث الكون بظاهرة الارادة الربانية، وظاهرة الحياة، ونشأتها وتنوعها، بظاهرة الاجابة والهداية، وظاهرة الابداع، بظاهرة الحكمة والعناية والوحدة، لأن لهذه الظواهر دلالات على وجود الله واسمائه الحسنی (٣) وبعد احصاءه الآيات المختصة بالتفسير العلمي يضع الامام الغزالي رحمه الله، ضوابطاً للباحث تخص هذا العلم :

١. أن تحصل النتائج بالبرهان المستقصى، وأن لا يبقى مجال احتمال للالتباس.

(١) سورة الواقعة الآيتان: ٥٧. ٥٨.

(٢) سورة الحشر، الآيتان: ٢٣- ٢٤.

(٣) الله جل جلاله، سعيد حوى، مكتبة وهبة، شارع الجمهورية، عابدين، القاهرة الطبعة الرابعة، المقدمة، ٣.

٢. أن يبني على أمور مسلم فيها مصدق بها.
٣. أن يحصل التصديق بالأدلة الخطابية، لإشهارها بين اكابر العلماء.
٤. التصديق يجب ان يكون ممن حسن الاعتقاد فيه بسبب ثناء الناس عليه.
٥. الأخذ بقرائن تفيد التصديق وتؤكدده.
٦. أن يكون القول مناسباً للطبيعة العلمية، والسلوك الأخلاقي، أي بعيد عن المنافرة والتعصب.^(١)

أما الزمخشري^(٢) (ت: ٥٣٨هـ)، صاحب الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، هو أول من استخدم شرح النظرية العلمية، التي تخص الامثال العربية، متجها بهذا المنهج الى الاستدلال من اتجاهين: (اللسان العربي)، لأنه لغة القرآن، و (القرآن الكريم نفسه)، وهو بارع في ذلك لأنه اديب اريب.

ولأن الرازي (٦٠٦هـ) كان طبيباً راقياً، محتكاً بأهل العلوم العلمية الصرفة، فقد كانت بضاعته صاحبة الجودة في التفصيل والاطناب في شرح المسائل العلمية، فنجدته كثيراً ما ينقل عن الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، اللغة التي تؤيد مذهبه، ويختار ترجيحات الطبري

(١) مجموعة رسائل الامام الغزالي، للإمام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، الطبعة السادسة، ٨٠.

(٢) محمود بن عمر بن محمد بن عمر العلامة أبو القاسم الزمخشري الحوارزمي، النحوي، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشتر، قرية من قرى خوارم، وقدم بغداد، له التصانيف البديعة منها الكشف في التفسير، والفائق في غريب الحديث وغيرها من المؤلفات، مات ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، ينظر: طبقات المفسرين العشرين، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦هـ، ١/١٢٠.

(ت: ٣١هـ) ، مستعينا، بالرئيس^(١) كما يسميه، ويقصد به ابن سينا، مستفيدا من آرائه، خاتما مقاله العلمي، بنتائج تفيد بصدق القرآن الكريم، بحفاوة منه بتلك العبارات الراقية التي تؤيد سيد الخلق الأمين محمدا عليه الصلاة والسلام، جاعلا النصوص والشواهد في ثنايا الاستدلال كل في موطنه بحسب الحاجة اليه، وهكذا بدأت الاتجاهات تتسارع الى تطور هذا النوع من التفسير، وقد اتجه العلماء فيه الى ثلاثة اتجاهات:

الأول : وضع حد للتعريف به .

الثاني : تقويته أو اضعافه من خلال مدرستين، واحدة تؤيده واخرى تعارضه .

الثالث: الاسباب التي دعت الى ظهور هكذا نوع، ولا اسميها نزعة كما اصطلح عليها الذهبي^(٢)، لأنه تعبير يشوش الذهن، وكأنها رغبة بلا رسوخ ولا ادلة، وهذه التوجهات ستكون محل بحثنا.

المطلب الثاني

الإعجاز البياني في فكر الباقلاني البصري

محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، أبو بكر القاضي الباقلاني البصري المتكلم الفقيه^(١).

(١) الرئيس ابن سينا، (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ ، ٩٨٠ - ١٠٣٧ م)، الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شرف الملك: الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب، والمنطق والطبيعات واللاهيات. أصله من بلخ، ومولده في إحدى قرى بخارى، ونشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد، وناظر العلماء، واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة في همدان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، فتواري. ثم صار إلى أصفهان، وصنف بها أكثر كتبه، ينظر : الأعلام ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ٢/٢٤١.

(٢) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، ٢/٣٥٥.

الباقلائي نسبة إلى الباقلي وبيعه والبصري لأنه نشأ في البصرة وقضى فيها فترة شبابه قبل أن يهاجر منها إلى بغداد ليقوم فيها بقية حياته والمتكلم لأنه اتجه إلى علم الكلام نظراً لكثرة الملحدون في العراق في القرن الرابع الهجري وظهور مذهب أبي حسن الأشعري ودفاعه عن آرائه وجداله الشديد للمعتزلة وأنصاره يقولون إنه أعرف الناس بعلم الكلام، وأحسنهم خاطراً، وأجودهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأصحهم عبارة.. وله في كتب الكلام آراء كثيرة يعتد بها.^(٢)

تعدّ آراء الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) الترجمة العلمية لما جال في خاطره، ولما اعتمل في ذهنه من أمور، حيث وجد أن أنسب ما يمكن أن يقال، هو التأليف حول إعجاز القرآن، وما يربط بهذا الإعجاز من مفاهيم ومضامين، فجاء كتابه من أفضل الكتب العلمية التي تناولت هذا الموضوع.. معبراً عن آراء السلف من علماء القرن الرابع، كما اعتبر الرجل تأليفه لهذا الكتاب واجباً دينياً في المرتبة الأولى، وكان في عصره وقريباً منه القاضي عياض فقد كان له كلام متناثراً حول الإعجاز البياني^(٣)

فإذا نظرنا في وجوهه الأربعة التي اختارها وجدنا أن الوجه الثاني - وهو: (صورة نظم القرآن العجيب والأسلوب الغريب) - ما هو إلا تكرار للوجه الأول: (حسن تأليفه والتتألم كلمه وفصاحته وبلاغته..)، كذلك الوجه الثالث وهو: (ما انطوى عليه القرآن من الإخبار بالمغيبات) والوجه الرابع: (ما أنبأ به من أخبار القرون السابقة والأمم البائدة..)

(١) الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى:

١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ١٧٦/٦.

(٢) أبو بكر الباقلاني ومفهومه للإعجاز القرآني ص: ٨.

(٣) الشفا، ٢٦٧/١.

كلاهما يتدرج تحت الجانب التاريخي، فهما في واقع الأمر وجه واحد يصور إعجاز القرآن من حيث الزمن.. واتّصاله بحركة التاريخ في الماضي والمستقبل.^(١)

حدد الباقلاني في فاتحة كتابه.. منهجه في البحث، وغايته منه، بأنه يرمي من وراء ذلك إلى عدة أمور، كشف ما كان لأصل الدين قواماً.. ولقاعدة التوحيد عماداً ونظاماً، وإثبات أن ما جاء به النبي صدقاً وبرهاناً، ولمعجزته ثبوتاً وحجة، للرد على ما طعن فيه الطاعنون والملحدون حول أصول الدين، ثم نفي كل ما تقوّله المتقولون عن معادلة القرآن وموازنته بالشعر.. اعتماداً على ما توارثوه من أقوال ملحدة قريش وغيرهم.^(٢)

المطلب الثالث

الآراء المترتبة على احصاء الإمام الغزالي ومنهج اللغة في فكر الزمخشري

إذا كان الجانب العلمي تشمل اقسامه دراسة الكون والاحياء، الكيمياء والفيزياء والطب، فإن ابن عادل الدمشقي المفسر، - ت: ٧٧٥ هـ -، عمد الى تقسيم بيان مباحث التفسير بصبغته العلمية الصرفة على النحو الاتي:

قسم من الآيات تتحدث عن: العلوية كالرعد، والبرق، والسحاب، والمطر، والثلج، والهواء، وقسم عن: المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها، وكيفياتها.

وقسم اخر: الثّبات وخاصية الخشب والورق بخصوصه، وقسم من الآيات عن: اختلاف حال الحيوانات في أشكالها، وطبائعها، وأصواتها، وخلقها. وقسم من الآيات عن: تشريح أبدان الناس.^(٣) وغير هذه من الاقوال التي يشابهها في الزيادة بهذا اللون كثير في تفسير الثعلبي. ت: ٤٢٧ هـ -، والرازي. ت: ٦٠٦ هـ -، وغيرهم من القدماء.

(١) القاضي عياض ومفهومه للإعجاز القرآني، ٢٦.

(٢) أبو بكر الباقلاني ومفهومه للإعجاز القرآني، ١١.

(٣) ينظر: الباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥ هـ)، ت الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ١١/٢٢٣.

دافع مشروع من ذوي الاختصاص للباحثين في العصر الحديث، وهم يواكبون مكتشفات العصر الحديث ان يبحثوا ليتيقنوا من صحة ما ورد في التفسير القديم، لغرض التعزيد، أو التصحيح، أو الاستفادة، مما يخص بيان الظاهرة الكونية أو النباتية، ومراحل التطور في الخلق والنشأة، فالتفسير العلمي منهج قديم مرتبط بضوابط محددة. هذه مقدمة احببت تسليط الضوء فيها على بعض نصوص المفسرين القدماء على الاصطلاح في القضايا العلمية.

يقول الشيخ الذهبي المعاصر : (إذا كانت فكرة التفسير العلمي قد راجت عند بعض المتقدمين، وازدادت رواجاً عند بعض المتأخرين، فإنها لم تلق رواجاً عند بعض العلماء الأقدمين، كما أنها لم تلق رواجاً عند بعض المتأخرين منهم أيضاً)^(١)

تبنى هذه الفكرة في العصور المتقدمة الفقيه الأصولي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الأندلسي، (ت ٧٩٠ هـ)، وذلك أننا نجده في كتابه (الموافقات)، يعقد بحثاً خاصاً لمقاصد الشارع، ويقسم هذه المقاصد إلى أنواع تولى شرحها وبيانها.^(٢)

ثم يصحح الشاطبي رأيه هذا ويحتج له بما عُرِف عن السلف من نظرهم في القرآن فيرى: إن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم تبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم، نعم تضمن علوماً من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولوا الأبواب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة، دون الاهتمام بأعلامه، والاستتارة بنوره، وأما أن فيه ما ليس من ذلك فلا.^(٣)

(١) ينظر: الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت : ٧٩٠ هـ)،

ت : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، ٢ / ١١٢.

(٢) التفسير والمفسرون، الذهبي، ٣٥٤ / ٢.

(٣) ينظر: الموافقات، الشاطبي، (ت : ٧٩٠ هـ)، ٢ / ١٢٨.

ويعود الذهبي ليقول: ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة - نزعة التفسير العلمي تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، وما جدَّ من العلوم، ثم وُجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الغزالي، وابن العربي، والمرسي، والسيوطي، ولوجدنا أيضاً أن هذه الفكرة قد طُبِّقت علمياً، وظهرت في مثل محاولات الفخر الرازي، ضمن تفسيره للقرآن.^(١)

وكلنا نعلم أن الدولة العباسية ابتدأت من ١٣٢ هـ - ، لتمدت إلى ٦٥٦ هـ - ، ليس هذا هو زمن التابعين وتابعيهم وتابعيهم وهم السلف الصالح،؟

يقول البعض إن المفسرين القدماء لم يكن هذا اتجاههم، أي الحديث عن العلوم الصرفة ، وإن المفسرين القدماء كانت قضيتهم وهو يتوجهون الى تفسير آية من آيات الله أنهم يريدون بيان مراد الله، وقد فات الرجل ان التفسير في كل حقبة يتغير فيه توجه المفسرين في الاسلوب لغرض بيان مراد الله، فمنهج مجاهد من خلال آرائه المجموعة، لا يشابه سلوك الطبري في التأليف، وسلوك الزمخشري الذي اتخذ اتجاه البيان من اللغة، لا يشابه تفسير الثعلبي، ولا القرطبي، وعجلة الزمن كانت تتسارع في وقتهم، وربما أثرت لهجات المفسرين وانتماءاتهم القبلية الى رؤية غامضة في تفسير بعض النصوص، فسلخوا اتجاهها يكشف لهم الغموض، وكلهم يريدون بيان مراد الله تعالى، فالقرآن الكريم استوعب لهجات العرب، وهذا أنموذج من النماذج الكثيرة، كاستخدام لفظ الجب (البئر) في ريف مصر: قال تعالى: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾^(٢)، والرَّسَّ يعني البئر التي قتل فيها صاحب ياسين بانطاكية التي في الشام^(٣)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثُودٌ﴾^(٤) وفي الخطاب العام للقرى، كانت اللفظة الأشهر على لسان العرب، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ

(١) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (١٣٩٨هـ) ، ٣٥٥/٢.

(٢) سورة يوسف، من الآية: ١٥.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٣٥ / ٣.

(٤) سورة ق، الآية: ١٢.

وَقَصِّرْ مَشِيدٌ ^(١). وكلها بمعنى واحد، وربما كان توجه الرازي في اعداد تفسيره تلبية لما يحتاجه اهل زمانه في بيان مراد الله من خلال التصوير الذي يلائم اهل عصره.

المبحث الثالث

تأليف المفسرون العراقيون لكتب تضمنت أنواع التفسير

المطلب الاول

أحكام القرآن الكريم وشرح غريبه

أولاً : أحكام القرآن الكريم :

مؤلف هذا التفسير هو عماد الدين، أبو الحسن عليّ بن محمد بن عليّ الطبري، المعروف بالكنيا الهراسي، الفقيه الشافعي، المولود سنة ٤٥٠ هـ (خمسين وأربعمئة من الهجرة)، أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلى نيسابور، وتفقّه على إمام الحرمين الجويني مدة حتى برع، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلى العراق، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفي سنة ٥٠٤ هـ ^(٢)

وقد سبقه من العراقيين في تأليف كتاب (أحكام القرآن) للشيخ أبي الحسن علي بن موسى بن يزداد القمي الحنفي المتوفى سنة ٣٠٥ هـ، وهو على مذهب أهل العراق. ^(٣)

قال الامام البيهقي :

ومما ألف في أحكام القرآن على مذهب أهل العراق «أحكام القرآن» لعلي بن موسى بن يزداد القمي، و «أحكام القرآن» لأبي جعفر الطحاوي - في ألف ورقة-، و «أحكام القرآن» لأبي بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالحصاص - في ثلاثة مجلدات و

(١) تفسير سورة الحج، الآية : ٤٥.

(٢) التفسير والمفسرون ٣٢٧ / ٢

(٣) أحكام القرآن للكنيا الهراسي ، المقدمة: ١٢، ينظر : القرآن وعلومه، الحديث وعلومه ص: ٣٠

«تلخيص أحكام القرآن» للجمال بن السراج محمود بن أحمد القونوي، و «التفسيرات الأحمديّة» لملاحيون الهندي صاحب نور الأنوار - وهي على اختصارها نافعة^(١).
ثانياً : غريب القرآن الكريم :

محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون الموصلي ثم البغدادي أبو بكر النقاش المقرئ المفسر، كان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير، قرأ القرآن على هارون بن موسى الأخفش، وابن أبي مهران وجماعة، وقرأ عليه خلّاق منهم أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران، وأبو الحسين الحمّامي وجماعة، وصنف التفسير وسماه شفاء الصدور وله الإشارة في غريب القرآن والموضح في معاني القرآن ودلائل النبوة والقراءات بعلمها، وأشياء أخر^(٢).

ومن القراء الذين صنفوا في الغريب أبو عبيد فبعد أن تلقى - رحمه الله - مبادئ العلوم في (هَراة) مسقط رأسه رحل منها قاصداً طلب العلم، فكانت أولى رحلاته إلى العراق (بغداد، والكوفة، والبصرة) تلك المدن التي سطع فيها نور العلم، وقصدها القاضي والدّاني، فطلب العلم فيها، وكان دخوله لبغداد في حدود سنة (١٧٦هـ)، وذلك لأنه روى عن قاضيه: سعيد بن عبدالرحمن الجُمحي المتوفى سنة (١٧٦هـ)، كما سمع فيها من الفرج بن فُصالة المتوفى سنة (١٧٧هـ)، وهكذا يتبين أن أبا عبيد كان يتنقل بين مدن العراق يسمع من علمائها، ويأخذ عنهم^(٣).

المطلب الثاني

تفسير القرآن الكريم الشمولي

وجد للمفسرين العراقيين القدامى مساحة كبيرة في البحث العلمي المعاصر في الدراسات كالإمام العلامة أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة (٢٢٤هـ) رحمه

(١) أحكام القرآن للشافعي - جمع البيهقي ١ / ١٤.

(٢) طبقات المفسرين للسيوطي ص: ٩٤.

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ١٢/٤٠٣، ينظر: السير للذهبي: ٧/٤٥٦. وتقريب التهذيب لابن حجر: ص ٤٣٦.

الله، فقد كانت له جهود عظيمة في تفسير كلام الله تعالى، وإبراز معانيه وهداياته، واستنباط فوائده وإرشاداته، لكن أقواله مبنوثة متفرقة.^(١)

وكذا ابن عقيل ولد ابن عقيل في بغداد سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة في جمادى الآخرة^(٢)، كان مفسراً بارعاً^(٣). علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي الظفري المقرئ الفقيه الحنبلي الأصولي الواعظ المتكلم، أبو الوفاء، أحد الأئمة الأعلام، وشيخ الإسلام.^(٤)

ومن بعدهم ابن هبيرة^(٥) الذي كان كان حاضراً في النصف الأول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، وهو وزير عربي من بني ذهل بن شيبان، ويجتمع نسبه مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في نزار، ولد ابن هبيرة وعاش وتوفي في العراق ولم يرحل خارجه، فقد دخل بغداد شاباً وأقام بها حتى وفاته، طلب ابن هبيرة العلم صغيراً وأخذ عن الكثير من علماء العراق، ثم بدأ يدرّس ويصنّف، وكان مجلسه عامراً

(١) أقوال أبي عبيد القاسم بن سلام في التفسير - جمعاً ودراسة، ٢

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ١٤٢ .

(٣) منهج ابن عقيل الحنبلي وأقواله في التفسير جمعاً ودراسة ١ / ٩ .

(٤) الظفري : بالتحريك نسبة إلى الظفريّة ، وهي محلة كبيرة شرقي بغداد ، ينظر الأنساب للسمعاني

٤ / ١٠٢ ، معجم البلدان ٤ / ٦١ ، الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ١٤٢ ، وقال :

(كذا قرأت نسبه بخطه) ، ينظر : منهج ابن عقيل الحنبلي وأقواله في التفسير جمعاً ودراسة ١ /

٨ .

(٥) يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن الحسن بن جهم الشيباني، ولد بالدور ودخل بغداد في صباه

وطلب العلم وجالس الفقهاء والأدباء وحصل من كل فن طرفاً وخدم الديوان فولّي إشراف المخزن

ثم ديوان الزمام ثم استوزره المقتفي لأمر الله سنة أربع وأربعين وخمسائة فبقي وزيره ووزير ولده

المستجد حتى توفي في جمادى الأولى سنة ستين وخمسائة وكان ذا رأي صائب وسريّة صالحة

وكان مكرماً للعلماء، يحضر مجلسه الفقهاء والعلماء ويقرأ عنده الحديث على الشيوخ ، ينظر :

تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية ١٥ / ٣٨٥ .

بالعلماء وطلبة العلم حتى توفي، وقد أثنى علماء السلف على علمه ونصره للسنة وأخلاقه الرفيعة ثناءً عطرًا.^(١)

وفي العصر الحديث جاء روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (للألوسي)، ومؤلفه هو التفسير هو: أبو التناء، شهاب الدين، السيد محمود أفندي الألوسي البغدادي، ولد في سنة ١٢١٧ هـ (سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية)، في جانب الكرخ من بغداد، كان رحمه الله شيخ العلماء في العراق، وآية من آيات الله العظام، ونادرة من نواذر الأيام، جمع كثيراً من العلوم حتى أصبح علامة في المنقول والمعقول، فهامة في الفروع والأصول، مُحَدِّثاً لا يُجَارَى ومُفَسِّراً لكتاب خالد النقشبندي، والشيخ على السويدي، وكان رحمه الله غاية في الحرص على تزايد علمه، وتوفير نصيبه منه، وكان كثيراً مما ينشد:

سهرى لتقيق العلوم أذلي ... من وصل غانية وطيب عناق^(٢)

وكذلك كتاب مواهب الرحمن في تفسير القرآن للشيخ عبد الكريم المدرس من التفاسير المعاصرة المشهورة الذي نور العلماء في جميل نسقه وحلاوة وعذوبة بيانه تألف من سبع مجلدات كأنها السبع المثاني، وأوضح مشكلات محكماته لو قرأها العامي لارتاح مما اعضله كل زمانه، ولو قرأها العالم لأمر به كل اهله واولاده^(٣).

وقد صرح ذلك بأسم تفسيره في قوله (وسميت تفسيري هذا مواهب الرحمن في تفسير القرآن سلامة البيان)^(٤).

وقد بين الاسباب التي دعت له لكتابة تفسيره هذا بقوله: (لما كان لكل زمان اوضاع خاصة مبنية، ومشاكل مهمة معنية، واقتضى زماننا التعرض لبيان الحق في مهمات واردة،

(١) أقوال الوزير ابن هبيرة في التفسير ص: ٣٨٥.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٣١٠

(٣) ينظر الوسيلة في شرح الفضيلة، (١/ص ت).

(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، عبد الكريم محمد المدرس، غني نشره: محمد علي القره داغي، دار الحرية، للطباعة، بغداد، ط٢، ١٩٩٠م، ٦/١.

طلب مني بعض الاصدقاء أن اكتب تفسيراً يعالج ما كنّا نبغيه ، واني مع قلة بضاعتي في هذا الشأن ، وضعف استطاعتي لاقتحام هذا الميدان ، توكلت على الله المنان ، واعتمدت على حوله وقوته^(١) .

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى اله وصحبه ومن ولاه ، وبعد :

فبعد كتابتي للبحث توصلت الى اهم النتائج :

١. تاثر الباحث العلمي بكتب التفسير القديم كان ببطء يثير الاستغراب وذلك للجوانب التالية:

أ. انعدام المطالعة الشاملة لكتب التفسير القديمة .

ب. التخوف من الخوض في الآيات العلمية خشيت الوقوع بالأخطاء التي ستكون فيما بعد ذريعة ضد القرآن الكريم .

ت. الالتباس في فهم مقاصد المفسر المتقدم في مراده.

ث. الشهرة الغالبة على فكر المفسرين القدماء انهم لم يتعمقوا في الخوض في الجوانب العلمية لانعدام الوسائل، او قلتها في عصرهم ، مما جعل الباحث العلمي لا يلتفت الى البحث في كتبهم .

٥. أن العلماء الكبار أكثرهم من العراق ما كان من الصعب احصاءهم في هكذا بحث .

٦. تميزوا بالصبر والجلد على طلب العلم وبذله ، ومما يدل على ذلك : استغلالهم للوقت ، وكثرة مشايخهم وتلامذتهم ومصنفاتهم .

(١) المرجع السابق ، ٥/١ .



٧. خلفوا بعدهم علماً غزيراً استفاد منه من جاء بعده ، وعلى وجه الخصوص علم التفسير .

٨. كانت توجهاتهم في علوم القرآن تشمل كل الجوانب، ومن ذلك : النسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، وأسباب النزول ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد .
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .